العدالة الإسلامية

أذاع الراديو مساء التاسع والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٥٠ أن محسناً أخفى اسمه تبرع لجامعة ييل Yale بمليون دولار للدراسات الانسانية . فهزتني هذه الأريحية بروحها ومظهرها ، وبانسجامها مع طبيعة هذه الأمة المحسنة ، ونبهتني إلى أن كثيراً من علل الطوائف والشعوب ، ومن شقاء البشرية ، مرده إلى الجهل بالحقائق الانسانية ، وإلى وضع أمورها في أيدي الحاكمين بأمرهم ، لا في أيدي أهل الاختصاص من علماء وفنيين ، وإلى تفشي الأنانية بين الأفراد تشبهاً بحكامهم الغاشمين .

كذلك ذكرني هذه الهبة السمحة بقصة تاريخية رواها إ . ف نايت E. F. Knight في كتابه الموسوم (حينما تلتقي ثلاث امبراطوريات — Where Three Empires Meet) المطبوع سنة ألف وتسع مئة وواحدة (١٩٠١) . قال : —

(في منطقة كاراكورم — Karakoram — التائية الجبلية بكاشمير عامة الأهالي جواً بارداً عنيفاً . واتفق أن زار الحاكم المسمى راجا رام سنج Raja Ram Singh شطراً كثيراً من هذا القطر ، فقابله جمهور مرتجف رث بحمل مصابيح مضاءة في وضح النهار ! فلما سأل عن معنى ذلك أجابه كليمهم :

« أيها المهرجا ! إن أرضنا اشتدت ظلمتها بحيث أحضرنا مصابيح لنكن عظمتك من رؤية بؤسنا ! واقنا لتتهل إليك لتنجدنا » — . وعرت بخاطري « عمرية » حافظ إبراهيم ووصفه البديع للخليفة العادل وهو نائم دون حراسة كأصغر رعاياه شأناً ... ثم مرت بخاطري المحاولات التي قامت شرقاً وغرباً في الديار الاسلامية فيما بعد لتحقيق العدالة الاجتماعية بالنظام الاشتراكي المعتدل . ولو كانت نجحت إحداها لكانت خلفت من الآثار في تطور المجتمع العربي الاسلامي اقتصادياً وثقافياً مثلما خلفت الحركة الوهابية من الآثار الطيبة في محاربة البدع والخرافات .

ونظرت من نافذة التاريخ فرأيت « الجمهورية الميمونية » في البحرين وما سادها من

العدالة الاجتماعية المطلقة ومن روح التقدم العجيب ، حتى صارت البحرين في حالة تغبط عليها من الفلاح والازدهار ، ومن الاستقرار الداخلي وقد زار هذه الجمهورية المثالية من المؤرخين الرحالين أمثال ابن حوقل والمقدسي وناصر خسرو ، فلم يجدوا في أهاليها منقصة واحدة .

ورأيت الرحالة ناصر خسرو يحاضر — بعد زيارته هذه الجمهورية الاسلامية العجيبة حول منتصف القرن الحادي عشر — فيتحدث عن تنظيم تلك الحكومة للأراضي بين المحتاجين ، وعن إلغائها معظم الضرائب ! ومن بين ما بلغ سمعي قوله :

« عندما زرت الاحساء رأيت ثلاثين ألفاً من السودان يشتغلون في الحقول والبساتين على حساب مجلس الحكومة ، وهي حقول مشتراة بمال الحكومة . ولم يكن يدفع المزارعون لها شيئاً من الضرائب . ومن عجز منهم أو أصابه دين فالفقر ، كانت تساعده الحكومة وتسلفه ما يحتاجه من المال حتى يعود إلى حاله ، ومن استدان لا يدفع فائدة عن دينه . وإذا دخل غريب الاحساء وكان من أصحاب الصناعات أو له معرفة بشيء منها استأجرته الحكومة واشترت له أدوات حرفته ، حتى يحسن حاله فيرد المال كاملاً إلى الصندوق العام دون فائدة أو ربا »

وعلاوة على ذلك تساعد الحكومة المعوزين والمنكوبين وتحارب الفقر كما تحارب الجهل والمرض ، وتؤدي وظيفة جمعية كبرى تعاونية مركزية ، فتقوم مثلاً بطحن الحبوب مجاناً على حساب صندوق الجمهورية العام . وهكذا لم يكن في الاحساء ولا فقير واحد ! والتجارة عامة بيد الحكومة ولا سيما الخارجية منها ، والأرباح الناجمة عنها تنفقها الحكومة على المرافق العامة . وهكذا العيش في هذه الجمهورية هادىء مطمئن ، والناس ينعمون بالاخاء والمساواة والعدالة والبحبوحة ، وهم في أمن كامل من الخوف إذ لا ينغص عيشهم ظلم أو ضريبة ، وحريتهم الفكرية والدينية مصونة . وهم مسلمون ، تقدميون في مذهبهم ، إذ أنهم لا يؤمنون إلا بالقرآن الكريم ويشكون في صحة معظم الأحاديث ، وينفرون من البدع والخرافات ومن سيطرة الاقطاعيين ومن نظام الطبقات والامتيازات التي تخالف روح الاسلام الحريصة على الاخاء والمساواة . ولو ترك الميسورون وشأنهم فلا ريب أنهم بالغون منزلة رفيعة ديناً ودنيا . ولكن أخشى ما أخشاه أنهم سيتعرضون للاختلال عليهم ولتشريه نهضتهم نظراً لخطرها على أصحاب الحكم المطلق

وعلى الجامدين المتعصبين الذين لأطماعهم الدنيوية . كذلك أخشى أن تدفع الحماسة بؤلاء الجمهوريين إلى الغرور ثم الى الطروب الخارجية نشراً لمبادئهم الاصلاحية ، بدل الاعتماد على الكتب والنشرات وهدمها ، وبذلك قد يجازفون بالنظام الرائع الذي أسسوه تمهيداً للمبادىء الاصلاحية الرفيعة التي تعرف عنها حكام المسلمين طمعاً في الدنيا ، فجرّوا بذلك الويلات على أنفسهم » .

ولم يمض وقت طويل حتى رأيت مخارف ناصر خسرو تتحقق ، فخسر العرب والمسلمون أعظم جمهورية مثالية نبتت في جزيرة العرب وضاعت معها جميع المؤلفات والوثائق والدراسات والخطب والرسائل والمحاضر المعبرة عن مبادئها وعن آراء زعمائها ومفكريها وهيئاتها ، وتركنا نتلمس الحقيقة بصعوبة وسط طوفان من الأكاذيب التي اختلقها خصومها عليها وتناقلها الكتاب المحرومون البحث والاستقلال.

يؤمن عامة الصينيين باتصال حياتهم بحياة أجدادهم الأقدمين ، ولو مرّت على وفاتهم مئات السنين ، فيوقدون لهم ويستلهمونهم ويضعون على قبورهم في احتفال الربيع قصاصات صغيرة من الورق الأصفر ذكرى واجلالاً لهم ، كما قد يقيمون هياكل بديعة لذكراهم . أما تقاليد المسلمين بل العرب عامة والأمم الناطقة بالضاد التي تأثرت بحضارتهم وحكمتهم فتدعو الى المحاكاة الفكرية والروحية والى اجلال الأجداد المحسنين وتراثهم عن طريق الدراسة اليقظة والانتفاع بهباتهم التي خلّفوها لنا وللانسانية عامة ، ولو طمستها الاهواء والتعرّبات السياسية أجيالاً طويلة .